قصة إسلام محمد أسد

مات محمد أسد في السادس عشر من شبعان سنة ١٤١٢هـ الموافق ١٩٩٢/٢/٢٠م، عن أكثر من تسعين عاماً. ومحمد أسد هو ذلك اليهودي النمساوي الذي ترك النمسا في أوائل العشرينات من هذا القرن ليتجول في أفريقيا وآسيا مراسلاً للصحف الأوروبية فاستهوته حياة المسلمين ودعته للبحث في الإسلام، وتجرد محمد أسد عن كل من المسبقات الفكرية للأوروبي الذي ينظر بتعال إلى الإسلام وعما يمكن أن تؤدي إليه صورة الواقع البائس للمسلمين في هذا القرن من تحامل على الإسلام وأدرك بعد بحث وتمحيص أن مشكلة المسلمين هي التراجع عن الإسلام وأن الإسلام من ناحية أخرى هو الحل الوحيد لمشاكل الحياة الغربية الأوروبية. وهكذا أسلم محمد أسد وترك لنا تراثاً يدور حول هذه الاشكالية التي شغلت فكره: كيف انحط المسلمون بابتعادهم عن الإسلام وكيف يمكن لهم أن يرتقوا إلى الإسلام من جديد ليس فقط ليرتفعوا في أنفسهم وإنما كذلك ليحملوا رايته إلى العالم. وقد تبدو فكرة حمل راية الإسلام إلى العالم مستغربة في هذا القرن الذي يعيش فيه المسلمون هزيمة نفسية ومادية كبرى ولكن محمد أسد لم يكن يكتب وكما يقول هو (لأولئك الذين ليس الإسلام لهم سوى عون من الأعوان على ولوج الحياة الاجتماعية أي الذين يتاجرون بالإسلام ولكن لأولئك الذين لا يزال يحيا في قلوبهم شرارة من ذلك اللهيب الذي كان يضطرم في قلوب صحابة رسول الله ذلك اللهيب الذي جعل الإسلام فيما مضى عظيماً بنظامه الاجتماعي ورقيه الثقافي).

وقد أحببت أن أقدم لقارىء اللواء ما يوجد بين يدينا من التراث الثقافي للاستاذ محمد أسد وذلك كمدخل يستحث القارىء على أن يتناول بنفسه هذا

التراث بالقراءة وسنعرف القارىء على الكتب الثلاثة التي بين أيدينا لمحمد أسد وهي الـطريق إلى مكة أو كما عنون في طبعته الأخيرة الطريق إلى الإسلام ثم الإسلام على مفترق الطرق وأخيراً منهاج الإسلام في الحكم والكتب الثلاثة من طبع وتوزيع دار العلم للملايين.

كتاب الطريق إلى مكة نشر بالانكليزية سنة ١٩٥٢ وترجم إلى الألمانية والسـويدية والفـرنسية واليابـانية والأوردية والتاميلية والاندونيسية وقد نقله إلى العربية عفيف البعلبكي في أربعمائة صفحـة سنة ١٩٥٥ وطبع مراراً بعد ذلك التاريخ والكتاب يدور على شكل قصة تروي انتقال المؤلف إلى الإسلام أو كما يقول هو عرض لاكتشاف رجل أوروبي للإسلام ولصيرورته جزءاً لا يتجزأ من البيئـة الإسلامية وتندمج أحداث مغامرات محمد أسد في الشرق الأوسط مع تأمـلاتـه في إشكـالية الحضـارة الغربية وإشكالية الواقع الإسلامي في نسيج متلاحم في هذا الكتاب بحيث تجعل من الكتاب ليس فقط معلماً من معالم الفكر الإسلامي ولكن كذلك رائعة أدبية شيقة.

محمد أسد النمساوي وزيد بن غانم الشمري يسيران في الصحراء من نجد إلى المدينة فمكة في صيف ١٩٣٢ ومع اضطرابات المسير ومشاقه يتذكر محمد أسد كيف دخل في الإسلام: طفولته المبكرة في لمبرج البولونية ورحلاته مع أبيه في النمسا وألمانيا، جده الحاخام ووالده المحامي، دراسته للعبرية والآرامية، دخـولـه جامعـة فيينـا حيث درس الفن والفلسفة لمدة سنتين وتعلقه بالتحليل النفساني وكتابات لاوتسي ثم تمرده على أسرته وذهابه إلى برلين دون أن يعلم أسرته ودون مال في جيبه وله من العمر عشرون عاماً أي عام ١٩٢٠ وبعد عامين من التقلب المهني أصبح ممثلاً لليونايتد تلغراف وقام بأول رحلة له إلى الشرق الأوسط بناء على دعوة من خاله الطبيب النفساني في القدس حيث كانت الحركة الصهيونية في أوجها. وفي القدس استهوته بساطة المسلمين بقدر ما نفر من الفكرة الصهيونية. يقول محمد أسد سألت جارنا الحاج في القدس هل تعتقد حقاً أن الله ينتظر منك أن تظهر له احترامك بتكرار الركوع والسجود؟ ألا يكون من الأفضل للمرء أن يخلو بنفسه وأن يصلي إلى الله في قلبه؟ فأجاب الحاج

بأية طريقة أخرى إذن يجب أن نعبد الله؟ ألم يخلق الجسد والروح معاً؟ وفي القدس أيضاً طرح على نفسه هذا التساؤل: أليس غريباً جداً أن تكون أمة عانت ضروباً كثيرة من الجور عبر تاريخها الطويل المؤلم ـ يقصد اليهود ـ على استعداد الآن لتحقيق هدفها الأوحد: انزال الظلم الفادح بأمة أخرى بريئة من كل آلام اليهود الماضية؟ وقد أثارت مقالاته التي أرسلها من القدس إلى ألمانيا الصهاينة الذين ظنوا أن العرب قد اشتروه. ومن القدس قام بجولة إلى مصر وشرقي الأردن وسوريا التي دخلها متنكراً في زي عربي بعد أن ضاعت أمواله وجواز سفره وعاد إلى ألمانيا سنة ١٩٢٣ حيث تعرف إلى السا التي أصبحت زوجته فيما بعد، وفي ربيع ١٩٢٤ قام برحلته الثانية إلى الشرق الأوسط التي استمرت سنتين زار خلالها مصر والأردن ولبنان وسوريا والعراق وإيران وأفغانستان. وهناك في إحدى القرى الأفغانية بدأ يفكر جدياً بالإسلام بعد أن قال له حاكمها أنت مسلم ولكنك لا تدري. وتابع رحلته إلى تركستان ثم تركمانية فموسكو فبرلين. وفي برلين سنة ١٩٢٦ ألقى سلسلة من المحاضرات في الأكاديمية الجغرافية السياسية وتزوج من السا التي كانت تكبره بخمسة عشر عاماً والتي ما لبثت أن شاركته اهتمامه بالإسلام وأخذا يدرسان معاً القرآن الكريم ومن ثم توجها إلى رئيس الجالية الإسلامية في برلين حيث أعلنا إسلامهما ثم ذهبا إلى مكة لأداء فريضة الحج، وفي مكة توفيت السا بينما قضى محمد أسد السنوات الست التالية ١٩٢٧-١٩٣٢ في الجزيرة العربية حيث التقى ابن سعود الذي أكرمه وسمح له بحرية التنقل بين بدو مملكته بل وكلفة سنة ١٩٢٩ بالسفر سراً إلى الكويت للبحث عن أسباب ومصادر تمويل تمرد ابن الدويش. وفي سنة ١٩٣١ سافر إلى ليبيا سراً بناء على طلب السيد أحمد السنوسي حيث التقى بالشهيد عمر المختار قبل استشهاده بأشهر قليلة.

يتوقف الكتاب عند سنة ١٩٣٢ وقد اخترنا للقارىء المقتطفات التالية والتي تروي الأحداث المباشرة لإسلام محمد أسد كما يرويها بنفسه: (كنت كلما زدت فهماً لتعاليم الإسلام من ناحيتها الذاتية وعظم ناحيتها العملية ازددت رغبة في التساؤل عما دفع المسلمين إلى هجر تطبيقها تطبيقاً كاملاً على الحياة

الحقيقية. لقد ناقشت هذه المشكلة مع كثير من المسلمين المفكرين في جميع البلاد ما بين طرابلس الغرب إلى هضبة البامير بالهند ومن البوسفور إلى بحر العرب فأصبح ذلك تقريباً شجى في نفسي طما في النهاية على سائر أوجه اهتمامي بالعالم الإسلامي من الناحية الثقافية حتى أني وأنا غير المسلم أصبحت أتكلم إلى المسلمين أنفسهم مشفقاً على الإسلام من إهمال المسلمين أنفسهم وتراخيهم، لم يكن هذا التطور بيناً في نفسي إلى أن كان يوم وذلك في خريف عام ١٩٢٥ وأنا يومذاك في جبال الأفغان، فقد تلقاني حاكم إداري شاب بقوله ولكنك مسلم غير أنك لا تعرف ذلك من نفسك. لقد أثرت في هذه الكلمات غير أن بقيت صامتاً ولكن لما عدت إلى أوروبا مرة ثانية عام ١٩٢٦ وجدت أن النتيجة المنطقية الوحيدة لميلي هذا أن أعتنق الإسلام.

وبمزيد من التفصيل (كنت في طريقي من هراة إلى كابول في أواسط أفغانستان وكان ذلك في أواخر سنة ١٩٢٥ وكان بصحبتي خادم وجندي أفغاني عبر الوديان المغمورة بالثلج وفي جبال هندوكوش كان الجو بارداً والثلج يتلألأ والجبال الشامخة منتصبة من كل جانب وبدأ حصاني يعرج وسمعت صليلاً عند حافره لقد أفلتت حدوته وأصبحت عالقة بمسمارين وحسب وسألت رفيقنا الأفغاني هل هناك قرية على مقربة منا نستطيع أن نجد فيها حداداً فقال إن قرية ده زانجي تبعد أقل من ثلاثة أميال إن فيها حداداً وكذلك قلعة حاكم المنطقة. وهكذا اتجهنا إلى ده زانجي. كان حاكم المنطقة شاباً قصير القامة على محياه عبارات المرح والبهجة فسر باستضافة رجل غريب يؤنسه في وحدته ومع أنه كان يمت بصلة النسب إلى الملك أمان الله فقد كان من أكثر الرجال الذين لقيتهم في أفغانستان تواضعاً، وفي المساء جلسنا إلى مائدة سخية وبعد ذلك غنى لنا رجل من القرية الأغاني البلدية بمصاحبة عود ذي ثلاثة أوتار. كان يغني بلغة الباشتو التي لم أكن أفهمها ولكن بعض الكلمات الفارسية التي كان ينطق بها اندفعت في قوة. كان يغني قتال داوود مع جالوت، صراع قوة الإيمان ضد القوة الوحشية وبرغم أنني لم استطع أن أتتبع كلمات الأغنية فقد فهمت موضوعها ذلك أنها بدأت في وداعة وخضوع ثم ارتفعت في نبرة عنيفة من الانفعال والألم

وانتهت إلى صيحة من الظفر والانتصار، وعندما انتهت الأغنية قال الحاكم: لقد كان داوود ضعيفاً، ولكن إيمانه كان عظيماً. ولم استطع أن أمنع نفسي من أن أضيف: وأنتم كثيرون ولكن ايمانكم ضعيف، ونظر إلى مضيفي دهشاً. أما أنا فقد ارتبكت لما صدر عني بصورة لا إرادية تقريباً وأسرعت إلى توجيه سيل جارف من الاسئلة: كيف حدث أنكم أيها المسلمون قد فقدتم ثقتكم بأنفسكم تلك الثقة بالنفس التي مكنتكم في الماضي من نشر دينكم في أقل من مائة عام من جزيرة العرب حتى الأطلسي غرباً وأعماق الصين شرقاً. وإنكم اليوم تسلمون أنفسكم بمثل هذه السهولة ومثل هذا الضعف إلى أفكار الغرب وعاداته. لماذا لا تستطيعون وأنتم الذين أنار أجدادكم العالم بالعلم والفن في وقت كانت أوروبا فيه غارقة في البربرية والجهل أن تستجمعوا شجاعتكم للعودة إلى دينكم التقدمي المنير. قل لي كيف حدث أن دين نبيكم وكل ما فيه من البساطة والوضوح قد دفن تحت انقاض من تأملات متحذلقيكم ومماحكاتهم العقيمة؟ كيف حدث أن أمراءكم وكبار اقطاعييكم يمرحون في الرخاء والنعيم بينما يعيش الكثيرون من إخوانهم المسلمين في فقر وقذارة يفوقان الوصف مع أن نبيكم قد لقنكم أنه لا يؤمن أحدكم إذا بات شبعان وجاره جائع؟ هل تستطيع أن تقول لي لم دفعتم النساء إلى مؤخرة حياتكم مع أن النساء من حول النبي وصحابته اشتركن ذلك الاشتراك الرائد الأخّاذ في حياة رجالهن. كيف حدث أن كثيراً جداً منكم أيها المسلمون جهلة وإن قليلاً جداً منكم لا يعرفون مجرد القراءة والكتابة. مع أن نبيكم أعلن أن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، ومع أنه قال لكم: «إن فضل العالم على العابد كفضل القمر إذا بدر على سائر الكواكب؟».

وكان مضيفي لا يزال يحدق فيّ دون أن ينطق بكلمة، وبدأت اعتقد أن ثورتي قد غاظته وأساءت إليه إساءة عميقة، بينما أخذ العجب صاحب العود وكان لا يعرف الفارسية جيداً بحيث يفهم ما أقول، لرؤيته غريباً يتحدث إلى الحاكم بمثل تلك الحدة وذلك الانفعال. وأخيراً لف الحاكم نفسه بعباءته الواسعة الصفراء بصورة أكثر إحكاماً، كأنما كان يشعر بالبرد، ثم همس:

ـ «ولكن . . أنت مسلم» .

فضحكت وأجبت : «كلا . إنني لست بمسلم ، ولكني رأيت في الإسلام قدراً كبيراً جداً من الجمال بحيث أنني أستشيط غضباً أحياناً برؤيتكم تضيعونه . سامحني إذا كنت قد تكلمت بجفاء ، فأنا لم أتكلم كعدو» .

هزّ مضيفي رأسه وقال : «كلا . . . أن الأمر هو كما قلت . أنت مسلم ، ولكنك لا تعرف ذلك . . . لماذا لا تقول الآن وفي هذا المكان : «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ، وتصبح مسلماً فعلاً ، كما أنت الآن في صميمك! قلها يا أخي ، قلها الآن ، أذهب معك غداً إلى كابل وآخذك إلى الأمير فيستقبلك بذراعين مفتوحتين كواحد منا . سوف يهبك البيوت والحدائق والمواشي وسنحبك كلنا ، قلها يا أخي . .» .

ـ «إني إذا قلتها يوماً ، فسأقولها لأني مطمئن إليها ، لا من أجل بيوت الأمير وحدائقه» .

لعلنا بهذا نكون قد أعطينا صورة عن روح هذا الكتاب تدفع القارىء لمطالعته كاملاً إذ أنه كله على هذا النمط من التحفز والإخلاص ولعله أن يكون لنا وقفة أخرى مع الكتابين الآخرين المشار إليهما إن شاء الله .

نشرت في جريدة اللواء ١٩٩٢/٣/٢٥